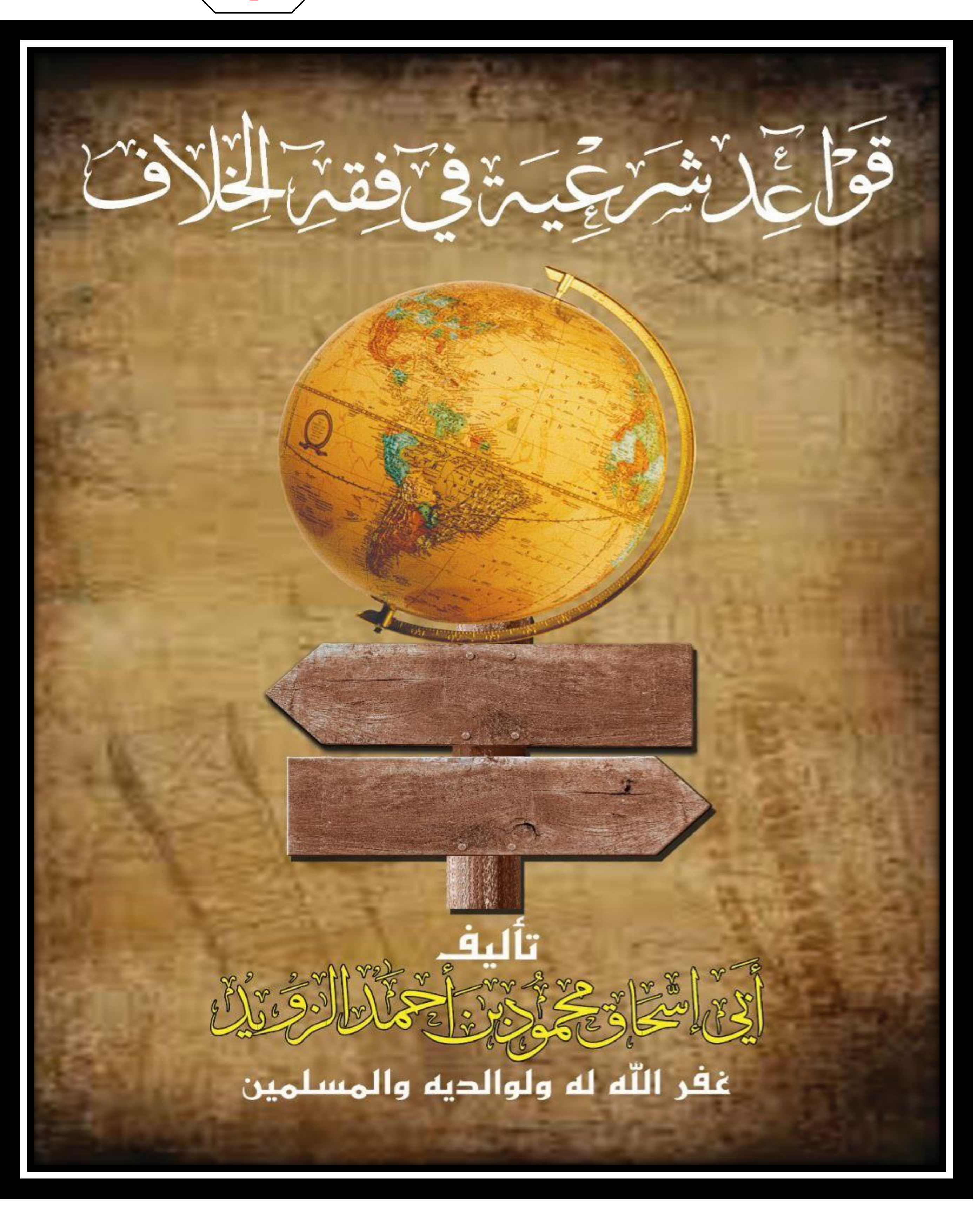
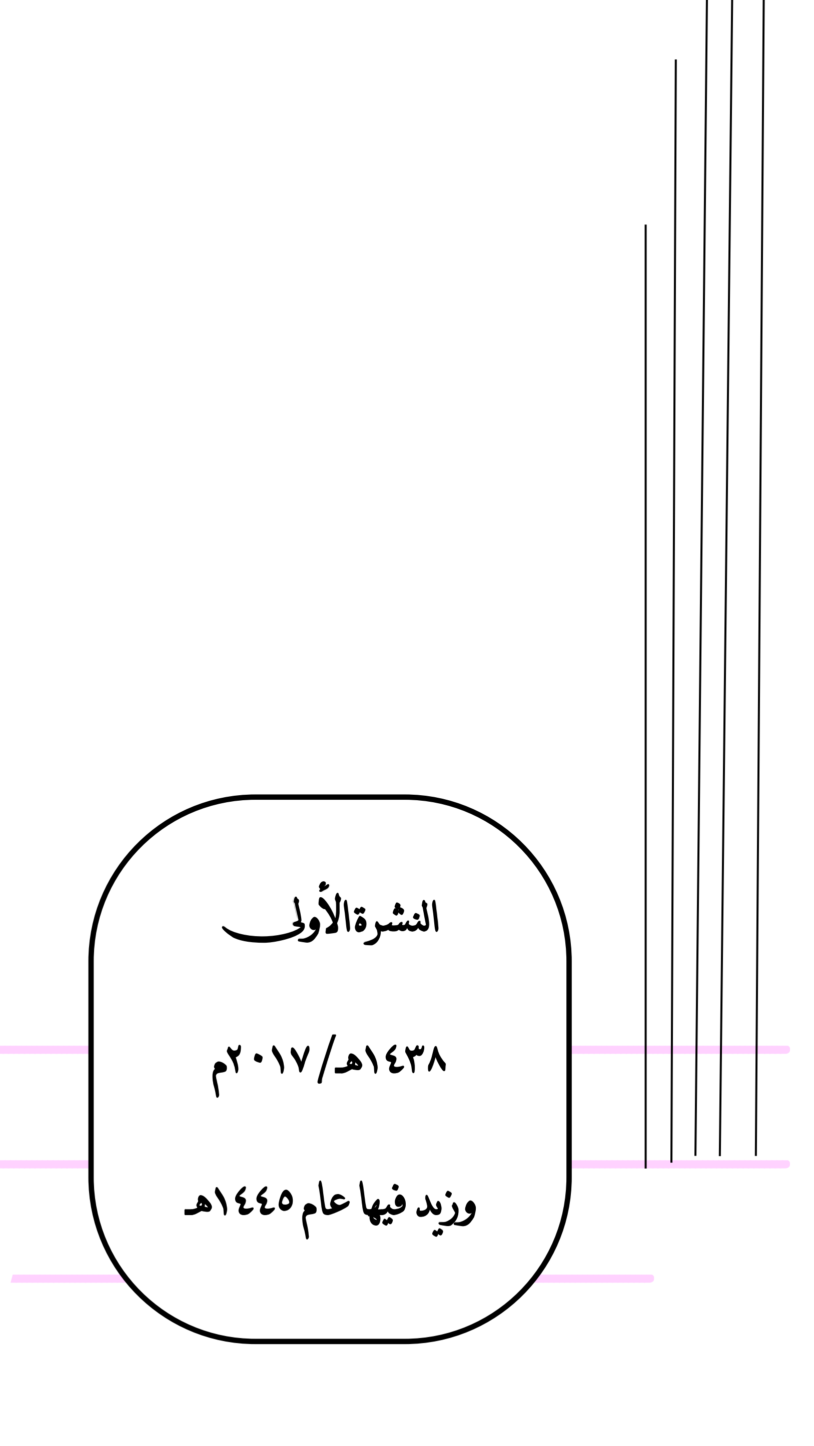

قواعد شرعية في فقه الخلاف
تأليف
أبي إسحاق محمود بن أحمد الزويد
غفر الله له ولوالديه والمسلمين


بسم الله الرحمن الرحيم


النشرة الأولى
١٤٣٨هـ/٢٠١٧م
وزيد فيها عام ١٤٤٥هـ

﴿إضاءة﴾

قال السيوطي نقلًا عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «كما أن لكل نبيٍّ عدوًا من المجرمين، كذلك لكل عالمٍ عدوٌّ؛ فإنهم ورثة النبيّين، ومن صبر كما صبروا، نُصِر كما نصروا، وما من عالم إلا وقد تسلَّط حُسادٌ من السفلة، وأضداد من الجهلة، ومن رأى تواريخ السابقين علم ذلك على اليقين»(١).

وقال أبو حامد في الإحياء: «فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس، طالباً للعيوب؛ فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو؛ فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق»(٢).

١- ينظر: قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (١/٢٨)، و«الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية» لمرعي الكرمي (ضمن رسائله) (٨/٤٠٨).

٢- الإحياء (٣/٣٦).

المقدمـــة

إنَّ الحمـدَ للهِ نحمـدُهُ، ونسـتعينُ بـهِ ونسـتغفرهُ، ونعـوذ بالله مـن شـرور أنفسـنا، ومـن سـيئات أعمالنـا، مـن يهـده الله، فـلا مضـل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشـهد ألا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأشـهد أنّ محمـداً عبده ورسوله ﷺ.

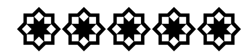
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمّا بعد: فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد فهذه قواعد نسجتها من كلام السلف في التعامل مع النَّاس عموماً والمخالف خصوصاً، وقد كنتُ كتبت هذه القواعد ونشرتها في بعض مواقع التواصل الاجتماعي، وطلب فاضل من أهل العلم الإذن في نشرها، وظننت أن ينقلها لمجموعة آخرى، وإذ بها نسخت ورفعت على الشبكة دون تدقيقها كما ينبغي، ثمَّ يسر الله لي أن أشرح هذه القواعد بمجلد -يسر الله نشره-، ورأيتُ إعادةَ نشرها مع زيادة في بعضها، وتصويبٍ للقلم في تصحيح ما يحتاج منها، والله أسأل أن ينفع بها، ويجعلها حجة لي لا عليَّ، وينفع بها، إنَّه ولي ذلك ومولاه.



أقول مستعينًا بالله معترفًا له بفضله عليَّ:

ذكر ما للمخالف من محاسن وحسنات؛ وما عليه من مساوئ وسيئات بتجردٍ وإنصافٍ تام.

وهذا ميزان دقيق ينبغي أن يتكلم به من كُملت أهليته، وقويت أدلَّته، ونوى القربة في النُّصح لا الفرية والتعيير[٣]، سيّما في أهل الشأن وذوي المقام من ولاة الأمر علماء أو أمراء.

فمن أظلم الظلم أن يُتكلمَ في الرجل دون النَّظرِ لسابقته وفضله، ومن الظلم أنْ يذكر الكلام فيه جرحًا دون بيان ما للرجل من حسناتٍ إن وجدت، فميزان نقد الرجال والحكم عليهم يقوم على الجرح والتعديل، ولا يقبل الجرح إلا إذا كان مفسرًا[٤]، وعلى ذلك ليعلم أنَّ من خاض في أعراض النَّاس بذكر المثالب دون المحاسن أنَّه وقع في

٣-وللحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله رسالة لطيفة بعنوان: (الفرق بين النصيحة والتعيير).

٤-يذكر أنَّ الشافعي بلغه أنَّ إنسانًا جرَّح رجلًا فسَئل عمَّا جرحه به، فقال: رأيته يبول قائمًا، فقيل له: وما في ذلك ما يوجب جرحه؟

فقال: لأنَّه يقع الرشش عليه وعلى ثوبه، ثمَّ يصلي، فقيل له: رأيته صلي كذلك؟ فقال: لا.

قال الخطيب: «فهذا ونحوه جرح بالتأويل والجهل، والعالمُ لا يجرح أحدا بهذا وأمثاله». كما في «الكفاية في معرفة أصول علم الرواية» (١/٢٧٧-٢٧٨).

الظلم الذي نهى الله عنه والله سائله، فعن الربيع، عن ابن سيرين قال: «ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم وتكتم خيره»(٥).

وقال ابن عون: «كانوا إذا ذكروا عند محمد -ابن سيرين- رجلاً بسيئة= ذكره محمد بأحسن ما يعلم»(٦).

وقال الكرجي القصَّاب: «من لم ينصف خصومه في الاحتجاج لم يقبل بيانه وأظلم برهانه»(٧).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن ابن حزم بعد أن بيَّن مخالفاته: «وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر؛ ويوجد في كتبه من كثرة الاطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال؛ والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره. فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء»(٨).

❁❁❁❁❁

---

٥ -الزهد لوكيع (ص٧٧٥)، و«صفة الصفوة» (٣/ ٢٤٥).

٦ -طبقات ابن سعد (٩/١٩٩).

٧ -نكت القرآن (٢/ ١١٣).

٨ -الفتاوى (٤/٢٠).

النِّية الصادقة في النُّصح، من أسباب التوفيق، وتحقيق المطلوب وإحقاق الحق

والنيَّة سرُّ قبول العمل، والصدق فيها من أسباب رجوع الخصم إلى الحق والانقياد له، فآفة بعض المتكلمين الطاعنين أنَّه يريد بذلك تحصيل السمعة أو مضارة بمن ينتقده لأمراض في قلبه وتلابيس إبليسية تحوم من حوله، وحاله كحال من يخلط السمّ بالعسل، وشأنه كشأن من حدّث من الزنادقة بأحاديث يوهم بها العامة يحل بها حرامًا أو يحرم به حلالًا غايته بذلك زرع الفتنة وبثّ الكذب فيهم، وهم يرونه رجلًا حريصاً على نشر السُنَّةِ وتعليم الخير.

وكذلك من تكلَّم في أعراض أهل العلم والفضل يظهر للناس رأفته بهم وحبه ونصحه لهم، وهو ناوٍ الطعن والفرية والتعيير، أو الغيبة بطريقة النصح، فهذا مريض القلب، فـ«الانتهاض لمجرد الاعتراض من جملة الأمراض»[٩].

قال الذهبي في «الموقظة» «الكلام في الرواة يحتاج إلى ورعٍ تام، وبراءة من الهوى والميل، وخبرة كاملة بالحديث، وعلله، ورجاله. ثمَّ نحن نفتقر إلى تحرير عبارات التعديل والجرح، وما بين ذلك من العبارات المتجاذبة، ثم أهم من ذلك أن نعلم بالاستقراء التام عرف ذلك الإمام الجهبذ، واصطلاحه، ومقاصده، بعباراته الكثيرة»[١٠].

٩- قاله السراج البلقيني كما في «محاسن الاصطلاح» (ص١٧٦).

١٠- (ص٨٢).

وقال العالم الوزير ابن هبيرة الحنبلي: «ليكن غاية أملك من عدوك الإنصاف؟ فمتى طلبته منه كان سائر الخلق عوناً لك، فأمَّا أخوك وصديقك فعاملهما بالفضل والمسامحة لا بالعدل»[١١]. فتأمل بالعدل؛ فكيف بالظلم!؟

وفي «وفيات الأعيان» في (ترجمة الوزير فخر الملك محمد بن علي بن خلف) ما نصه: «ورأيت في بعض المجاميع أنَّ رجلاً شيخاً رفع إلى فخر الملك المذكور قصة سعى فيها بهلاك شخص.

فلمَّا وقف فخر الملك عليها قلبها وكتب في ظهرها السعاية قبيحة، وإن كانت صحيحة فإن كنت أجريتها مجرى النُّصح، فخسرانك فيها أكثر من الربح؛ ومعاذ الله أن نقبل من مهتوكٍ في مستور، ولولا أنَّك في خفارة من شيبك لقابلناك بما يشبه مقالك، ونردعُ به أمثالك، فاكتم هذا العيب، واتقِ من يعلم الغيب والسلام»[١٢].

فمن كان غايته أن يلفت وجوه النَّاِس له، ويشار له بالبنان لتتبعه سقطة غير ضارة أو قادحة، فهذا مريض القلب ضعيف البصر والبصيرة بحال البشر، وبعقيدة أهل السنة والجماعة؛ إذ لا معصوم عندهم إلا النبي ﷺ.

١١-الآداب الشرعية (٢/١٢)، فتأمل هذا الكلام بقلب متجرد.

١٢-(٧/٢٠٣-٢٠٤) ط: المكتبة الثقافيَّة.

ويعظم الأمر إن كان التشنيع لغرض دنيوي أو أمر مادي أو منصب وجاهي! قال أمير المؤمنين عمر ﵁: «لأن يأكل الرجل بالطنبور والمزمار خيرٌ له من أن يأكل بدينه»[١٣].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «من النَّذالةِ أن يأكلَ العبدُ بدينه»[١٤]. نسأل الله العفو والعافية.

وقال عبيد بن جناد لابن المبارك: من السُّفلُ؟ قال: «من باعَ دِينَه بدنيا غيره»[١٥].



---

١٣ –«قمع الحرص بالزهد» للقرطبي (ص١١١-١١٢) ط: دار الصحابة.

١٤ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/١١٦).

١٥ –المحدث الفاصل (ص١٨٤-١٨٦) ط: الناشر المتميز.

التكلم في الرجال غايته بيان الحق، وإنصاف الخلق، لا التشهي وتحكيم الهوى

الردُّ على المخالفِ بالضوابط العلميَّة، وبالنِّيَّة الخالصة الصافية أصل من أصول الإسلام، وبابٌ من أبواب الجهاد، وهو شعار أهل الإيمان، فـ«الدين النصيحة»، والنصيحة يراد بها إرشاد التائه، وتعليم الجاهل، وتذكير العارف، لا التنقص والتعيير، وهذا الإنكار ينبغي أن يكون منضبطًا بالضوابط الشرعية، مطبقًا صاحبه لمضامين السياسية الحكمية والتي هي من خير خصال السلف، وأن يكون قصده من ذلك نصرة الدين، لا تحكيم الهوى، وأن يكون بحدود المقبول لا المبالغ فيه والمذموم.

قال يحيى: حدثني مالك، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنَّه قال: قدم على عمر بن الخطاب ﵁ رجل من أهل العراق فقال: لقد جئتك لأمر ما له رأس ولا ذنب!!

فقال عمر: ما هو؟ قال: «شهادات الزور ظهرت بأرضنا».

فقال عمر: أو قد كان ذلك؟

قال: نعم!

فقال عمر: «والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول»[١٦].

قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثمَّ افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثمَّ قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة».

قلت -الذهبي-: «هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون»[١٧].

١٦-الموطأ مع شرح الزرقاني (٤/٨) ط: المكتبة التوفيقية. (فقال: لقد جئتك لأمر ما له رأس ولا ذنب).

قال الباجي: أي ليس له أول ولا آخر، والعرب تقول: هذا جيش لا أول له ولا آخر. يريدون لكثرته، وقد تقول ذلك في الأمر المبهم لا يعرف وجهه ولا يهتدى لإصلاحه. (فقال عمر) بن الخطاب (ما هو؟) الأمر (فقال: شهادات الزور ظهرت بأرضنا) العراق. (فقال عمر: أوقد كان ذلك؟) يدل على أنه لم يتقدم علمه به لأن جميع الصحابة عدول بتعديل الله إياهم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية. (قال: نعم، فقال عمر: والله لا يؤسر رجل في الإسلام بغير العدول) أي لا يحبس، والأسر الحبس، أو لا يملك ملك الأسير لإقامة الحقوق عليه إلا بالصحابة الذين جميعهم عدول، وبالعدول من غيرهم، فمن لم يكن صحابيا ولم تعرف عدالته لم تقبل شهادته حتى تعرف عدالته من فسقه».

١٧-سير أعلام النبلاء (١٠/١٩)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والكلام في النَّاسِ يجب أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظلم كحال أهل البدع»[١٨].

وقال ابن دقيق العيد: «أعراضُ المسلمين حفرةً من حفرِ النَّار، وقف على شفيرها طائفتانِ من النَّاس المحدثون والحكام»[١٩].

وقال المناوي رحمه الله: «وليحذر المتكلم في هذا الفنَّ من التساهلِ في الجرح والتعديل؛ فإنَّه إن أعدل بغير تثبّتٍ كان كالمثبت حكماً ليس بثابت!

فيخشى عليه أن يدخل في زمرة من روى حديثاً وهو يظنُّ أنَّه كذب، وإنْ جرح بغير تحرز أقدم على الطعن في مسلم برئ من ذلك، ووسمه بميسم سوء يبقى عليه عاره أبداً.

والآفة تدخل في هذا تارة من الهوى، والغرض الفاسد، وكلام المتقدمين سالم من هذا غالباً.

وتارة من المخالفة في العقائد وهو موجود كثيراً قديماً وحديثاً، ولا ينبغي إطلاق الجرح بذلك، فقد قدمنا تحقيق الحال في العمل برواية المبتدعة»[٢٠].

---

١٨ –منهاج السنة النبوية (٤/٣٣٧).

١٩ –الاقتراح في بيان الاصطلاح (ص٦١).

٢٠ –انظر اليواقيت والدرر في شرح نخبة ابن حجر، للمناوي (٢/٣٦٣).

لا يحكم على النّاس إلا بعد التأكد والتثبت عملاً بنصِّ القرآن والسنّة واتباعاً لمنهج سلف الأمة

وكم من قريب محَبَبٍ أبعد، وطاهر عفيف رُمِي بهتانا وزوراً، لعدم الإنصاف، ولله در السلف في هذا الشأن تكلموا في الرجال بميزان دقيق تجردوا به عن أهوائهم وحكّموا فيه ميزان الشرع جرحاً وتعديلاً بذكر ما للرجال وما عليهم، ولو كان من ذوي القربى والرحم، وقصة ابن المديني شاهدة حين أجاب من سأله عن والده، فقال لهم: «إنَّه الدِّين، هو ضعيف!»[٢١].

فكل من قَبِل بالتهمة أو رضي بنقلها وتصويرها للغير دون تثبتٍ فهو مشارك بها، ويختلف الحال باختلاف النقل والمقال، وعند الله يجتمع الخلق، فيقف ذاك الطاعن ومثله الناعق والناقل إن شاء الله في صف أهل الإفلاس الذين حكى عنهم النبي ﷺ، وقارب تشبيهم ما حكاه القرآن عمَّن أفلس فكان عمله هباءً منثوراً.

---

٢١ -انظر: المجروحين لابن حبان (٢/١٥)، وانظر: كلام ابن رجب عن الإمام أحمد في «الحكم الجديرة» (ص٣٧-٣٨).

وروى الذهبي في «ميزان الاعتدال»، وهو في «مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي (٢٨٠). عن شعيب بن حرب، سمعت شعبة يقول: «لو حابيت أحداً لحابيت (هشام بن حسان)، كان ختني، ولم يكن يحفظ».

وفي «ميزان الاعتدال» (٥٣٦/١) قال أبو عروبة في (الحسين بن أبي السري العسقلاني): «هو خال أمي، وهو كذاب»، وفي الباب أمثلة غيرها.

ومـن عظـيم مـا قالـه ابـن حـزم الظـاهري في هـذا المقـام: «وسـيرد الجميـع إلى عـالم الغيـب فـيحكم بيننـا فيمـا فيـه نختلـف، وتالله لتطـولن ندامـة مـن لم يجعـل حظـه مـن الـدين والعلـم إلا نصـر قـول فـلان بعينـه، ولا يبـالي مـا أفسـد مـن الحقـائق في تلـك السـبيل العضـلة وبالله تعـالى نعـوذ مـن الخذلان»(٢٢).

ومـن الإنصـاف في التثبـت أن لا يقبـل الأقـوال في الخصـم فـيرد قـول العـادل المنصـف، ويرضـى بقـول الطـاعن والمعيـب، قـال ابـن مسـعود ﷺ: «مـن جـاءك بالحـق فاقبـل منـه وإن كـان بعيـدًا بغيضًـا، ومـن جـاءك بالباطل فأردد عليه وإنْ كان حبيبا قريباً»(٢٣).



٢٢- الإحكام في أصول الأحكام (٤/٣٣-٣٤).

٢٣- حلية الأولياء (١/١٣٤).

ألا يقصد بذلك الشهرة فهي مذمة، وقد كانت عند السلف أقذر من الجيفة النّتنة

بل تكاد أن تقول أنَّهم أجمعوا على ذلك، وسيرهم في ذلك عجيبة وأحوالهم فيها غريبة، وكانوا يكتبونَ، وتارةً يعزون، وآخرى يؤلفون في بيان ذمها والتحذير منها، فلله درهم وعلى الله أجرهم.

في «الحلية» عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: «إني لأدعُ كثيرًا من الكلامِ مخافةَ المباهاة»[٢٤].

وقال إبراهيم بن أدهم: «ما صدق اللهَ عبدٌ أحبَّ الشُّهرة»[٢٥].

وقال ابن المبارك رحمه الله: كتب إليّ سفيان الثوري: «بُثَّ، واحذر الشهرة».

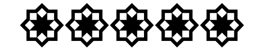
وفي «جامع بيان العلم» عن أبي حازم رحمه الله قال: «صار النّاس في زماننا يعيب الرجل من هو فوقه في العلم؟ ليرى الناس أنه ليس به حاجة إليهم!! ولا يذكر من هو مثله، ويزهو على من هو دونه،

٢٤- حلية الأولياء (١٥/٣٤٠).

٢٥- سير السلف الصالحين لقوام السنة الأصبهاني (ص٩٧٣).

فـذهب العلـم وهلـك النـاس»[٢٦]. وهـذا شـأن أهـل التعـالم وإن كـان فاعل ذلك شيخ زمانه.

قـال الشـاطبي: «وممَّـا انتهـت الغفلـة أو التغافـل بقـومٍ ممـن يشـار إليـه مـن أهــل العلــم أن صــيروا الترجــيح بالتنقــيص تصــريحاً أو تعريضــاً دأَبهــم، وعمروا بذلك دواوينهم، وسودوا به قراطيسهم...الخ»[٢٧].



٢٦- جامع بيان العلم (٢/١٢٢٥).

٢٧- (٤/٥٢٣).

ألا يتكلم الصغار في الكبار، ولا المتعالم في الطالب والعالم، إلا بـ«الحجة والبرهان»

قال الإمام الذهبي رحمه الله كلاماً نفيساً في بيان هذا: «الجاهل لا يعلم رتبة نفسه فكيف يعرف رتبة غيره؟»[٢٨].

وقال أكثم الصيفي رحمه الله: «ويلٌ لعالِم أمرٍ من جاهله، **من جهل شيئاً عاداه، ومن أحب شيئاً استبعده**»[٢٩].

وقال ابن القيم: «من جهل الشيء عاداه، وعادى أهله»[٣٠]. أو كما قال.

وينبغي أن يمسك المخالف لسانه عن التكلم في العلماء وأهل الفضل، فالعلماءُ هم أولياء الله، كما روي عن الإمامين أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله، ومَنْ أطلق لسانه فيهم بلي بموت القلب، وخشي عليه سوء المنقلب[٣١]، وأيم الله حكاية هؤلاء معلومة لا في زمانهم فحسب؛ بل في زماننا!! ولا يستغرب ذلك، فمن عاد أولياء

٢٨- السير (١١/٣٢١).

٢٩- جامع بيان العلم (٢/١١١٣).

٣٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (١/٢٤٤).

٣١- انظر: كتابي احترام العلماء وتوقيرهم (أهل الحديث أنموذجًا) (ص٦١-٧٠).

الله فقد أذن بحرب الله، وكفاك بهذا الخطب في تعظيم حرمة أهل العلم.

قال أبو حيان التوحيدي: «مَن اعتاد الوقيعة في الأعراض، ومباداةَ الناس بالسَّفَه، وثلبَهم بكل ما جاشَ في الصدر وتذرَّعَ به اللسان؛ فليس مِمَّن يُذكَر بخير، أو يُرجَى له فلاحٌ، أو يُؤمَنُ معه عَيبٌ» (٣٢).

نسأل الله السلامة والعافية.

وقال العلامة مرعي الكرمي الحنبلي في (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين): «فالغافلُ النَّاقص من حفظ النَّقائصَ، وغَفَل عن مثل هذا، فلم يرجع بعدما وقع» (٣٣). أي والله صدق!



---

٣٢ – أخلاق الوزيرين (ص ٣٨).

٣٣ – (فصل في كلام الناس في أبي حنيفة) (١١٦/٩) المطبوع ضمن رسائله في دار اللباب.

دعوة المخالف والتبين من صحة ما قيل عنه ونُسب إليه، وتذكيره بالله إن ثبت ما قيل عنه

واستبيان السبب الذي جعله يقع فيما وقع فيه، فلعله: **[تأول نصاً، أو اجتهد في غيرِ موضعٍ، أو لم يصح ما قيل ونقل عنه]**.

والأمر بالتثبت واجب عيني، ثبت بالدليل القطعي والظنّي، وعليه الاتفاق. وشأن من أشاع الأخبار دون تثبت أو تبين شأن أهل النفاق، وإن لم يكن منهم فقد شابههم!، و«مَنْ تشبه بقوم فهو منهم».

هذا إن كان الخبر في شأنٍ عام، فكيف إن كان طعناً بعالمٍ جليل أو طالب علم نبيل، أو عابد صالح متبع للهدي في غير إفراط ولا تفريط. كما قال السبكي: «فإذا كان الرجل ثقةً ومشهوداً له بالإيمان والاستقامة، لا ينبغي أن يُحْمل كلامه وألفاظ كتاباته على غير ما تعوّد منه ومن أمثاله، بل ينبغي التأويل الصالح، وحسن الظن الواجب به و بأمثاله»[٣٤].

٣٤- قاعدة الجرح والتعديل (ص٩٣).

وقال ابن القيم في «المدارج»: «والكلمة الواحدة يقولها اثنان يريد بها أحدهما أعظم الباطل، ويريد بها الآخر محض الحق، والاعتبار بطريقة القائل، وسيرته ومذهبه، وما يدعو إليه، ويناظر عليه»(٣٥).

وانظر هذا التأويل الحسن والإنصاف الكريم من الحافظ الذهبي للإمام ابن حبان البستي. قال أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري مؤلف كتاب «ذم الكلام»: سمعت عبد الصمد بن محمد بن محمد، سمعت أبي يقول: أنكروا على أبي حاتم بن حبان قوله: «**النبوة: العلم والعمل**»، فحكموا عليه بالزندقة، هجر، وكتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله.

قال الذهبي معلقاً: «هذه حكاية غريبة، وابن حبان فمن كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يعتذر عنه، فنقول: لم يرد حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله ﷺ:(الحجُّ عرفة) ومعلوم أنَّ الحاج لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجاً، بل بقي عليه فروض وواجبات، وإنما ذكر مهم الحج»(٣٦).

٣٥-(٣/٥٢١) ط: دار الكتاب.

٣٦-سير أعلام النبلاء (٣١/١٠٨-١٠٩) وانظر فيه فإنَّ للكلام بقية.

وما أن يتكلم رجل ناصحاً أو مبيناً حكمًا أو متكلمًا بشخص أو عائبًا لفعلٍ بالدليل واتباع للشرع لا للهوى مع مراعاة الحال؛ حتى ترى التهم الكاذبة المصطنعة تساق له، والكلمات الجارحة تُوجَّه إليه، بطعن بعلم الشيخ وعدالته والتحذير منه، بل وقد يصل الحال إلى موالاة أعدائه كما حصل في زماننا هذا! **ظناً من بعض من ضحك عليه، وغره ستر الله له أنّها قربة لله**، وما هو إلا: «سوء فهم، وتلبيس من عدوّ الله عليه».

فهلا أيُّها المتكلم بزيارة لطيفة فيها كلام ظريف، وعبارات رقيقة، تحمل صدق النَّاصح، وستر الأخوة في الله مع بيان الخطأ بأقل الكلف والمعايب. قال أبو طالب عبد الرحمن العباسي الهاشمي (ت ٦٢١هـ): «تتبُّع عثَرات القائلين ليس من شِيَم المؤمنين، وطلبُ إعنات الناقلين ليس من أخلاق الصالحين؛ لكِنْ يُشير إلى ما يثبت عنده صحته، ويُقيم عُذر المخطئ فيه بأنَّه وقعَ منه سهواً من غير عَمْد، واتفاقاً عن غير قصْد»[٣٧]. وهذا وأيم الله أخلاق المؤمنين، وخصال العلماء الربانيين.

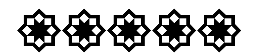
وأنشد الرياشي:

أزوركم لا أكافيكم بجفوتكم إنَّ المحب إذا لم يستزر زاراً

---

٣٧ لباب المنقول في شرف الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم (ص ٥٣).

يقرب الشوق دارا وهي نازحة   من عالج الشوق لم يستبعد الداراً[٣٨].



---

٣٨ –الطيوريات (١١٩٩).

ألا يتتبع الهفوات والسقطات، فليس أحد بعد الصادق معصوم

وهذا مجمع عليه في عقيدة أهل السنة والجماعة، وشأن من فعل ذلك أحد اثنين: إمَّا مريض قلب فيه نفاق وحقد وغلٍّ، أو جاهل ظلوم لم ينصف، ولم يعرف ماذا يفعل[٣٩].

قال عاصم: قال الكسائي: صليت بالرشيد، فأخطأت في آية، ما أخطأ فيها صبي، قلت: لعلهم يرجعين، فوالله ما اجترأ الرشيد أن يقول: أخطأت، لكن

قال: أي لغة هذه؟

قلت: يا أمير المؤمنين! قد يعثر الجواد.

قال: أما هذا فنعم[٤٠].

٣٩- قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذهب الناس، وبقي النسناس، قيل: وما النسناس؟ قال: الذين يشتبهون بالناس، وليسوا بالناس.
قال الإمام ابن عبد الهادي المقدسي الحنبلي -رحمه الله- معلقًا على أثر ابن عباس: هذا في زمنه، وفي زماننا: «ذهب النسناس، وبقي الأنجاس، والخناس الذي يوسوس في صدور الناس!». كما في «صب الخمول على من وصل أذاه إلى الصالحين من أولياء الله» (ص٩١).

٤٠- سير أعلام النبلاء (١٣٣/٩). فتأمل كلامه فأخطأت في آية، ما أخطأ فيها صبي! وانظر تقبل الرشيد له وعدم فضحه وتأنيبه؛ وهو أحد كبار الأئمة في علم مرجعه في بعض الطرق إليه.

قال بكر المزني رحمه الله: «إذا رأيتم الرجل موكلاً بعيوب الناس، ناسياً لعيبه، فاعلموا أنَّه قد مكر به»[٤١]. فتأمل هذا وانظر في حال بعض المتكلمين تجده قد مُكر به، ولبَّس عليه إبليس وأجلب عليه بخيله ورجله، أراد أن يشفي زكامًا فأحداث بذلك جُذامًا، والله المستعان.

فلا يلومنَّ فاعل هذه السنة إذا تكلم الناس فيه، كما روي عن بعض السلف أنَّه قال: «أدركتُ قوماً لم يكن لهم عيوب، فذكروا عيوب الناس، فذكر النَّاس لهم عيوباً، وأدركت أقواماً كانت لهم عيوب، فكفوا عن عيوب الناس، فنسيت عيوبهم»[٤٢].

وقال أبو داود: «من جرَّ ذيول النَّاس، جروا ذيله»[٤٣].

وفي «غاية النهاية في طبقات القراء» لابن الجزري (٥٣٩/١)، عن عمر بن محمد الإسكاف سمعت عمي يقول: سمعت ابن الدورقي يقول: اجتمع الكسائي واليزيدي عند الرشيد فحضرت صلاة فقدموا الكسائي يصلي فارتج عليه قراءة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال اليزيدي: قراءة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا﴾ ترتج على قارئ الكوفة قال: فحضرت صلاة فقدموا لليزيدي فارتج عليه في الحمدِ فلمَّا سلم، قال:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلي ... إنَّ البلاءَ موكلٌ بالمنطقِ.

٤١ – صفة الصفوة (٢٤٣/٣).

٤٢ – جامع العلوم والحكم (الحديث السادس والثلاثون) (ص٧٣٧)، وبنحوه في «تاريخ جرجان» (ص٢٥٢).

٤٣ – تهذيب الكمال (٥٦٤/٢١)، وانظر: السبب لهذا القول في المصدر.

وقال ابن عساكر للعبدري وكان عيابًا يقع في الأئمة: «إنّما نحترمُك ما احترمتَ الأئمةَ»[٤٤].

وروى الخطابي في «العزلة» بسنده عن الزجاج قال: «كُنَّا عند المبرد أبي العباس محمد فوقف عليه رجل فقال: أسألك عن مسألة من النحو.

قال: لا.

فقال: أخطأت.

فقال: يا هذا كيف أكون مخطئاً أو مصيباً ولم أجبك عن المسألة بعد؟ فأقبل عليه أصحابه يعنفونه، فقال لهم: «خلوا عنه ولا تعرضوا له أنا أخبركم بقصته، هذا رجل يحب الخلاف وقد خرج من بيته وقصدني على أن يخالفني في كل شيء أقوله ويخطئني فيه فسبق لسانه بما كان في ضميره»[٤٥].

وصدق! فهذا الإمام سفيان بن عيينة يقول: سمعت هشام بن حجير يقول لي، وسألته عن شيء: تريد أن أعلمك المراء؟ إذا قالوا لك: لا،

٤٤–سير أعلام النبلاء (٥٨١/١٩)، وانظر القصة هناك.

٤٥–العزلة (ص١٦٦–١٦٧).

فقـل: نعـم! وإذا قـالوا: نعـم، فقـل: لا![٤٦]. وهـذا ديـدن الحمقـى وأهـل التعالم.

وقـال الإمـام الحميـدي: كـان أحمـد بـن حنبـل قـد أقـام عنـدنا بمكـة علـى سـفيان بـن عيينـة، فقـال لي ذات يـوم: «هاهنـا رجـل مـن قـريش لـه بيـان ومعرفة»، فقلت له: فمن هو؟

قال: «محمد بن إدريس الشافعي».

وكـان الإمـام أحمـد قـد جالسـه في العـراق، فجلـس إليـه الحميـدي، ودارت مسـائل، يقـول الحميـدي: فلمـا قمنـا، قـال لي أحمـد بـن حنبـل: كيف رأيت؟

قـال: «فجعلـتُ أتّتبـع مـا كـان أخطـأ فيـه، **وكـان ذلـك مـني مـن الحسد**».

فقـال لي أحمـد بـن حنبـل: «فأنـت لا ترضـى أن يكـون رجـل مـن قـريش يكـون لـه هـذه المعرفـة، وهـذا البيـان؟ **تمـر مائـة مسـألة يخطـئ خمسًـا، أو عشرًا، اتركـ ما أخطأ، وخذ ما أصاب!!**».

٤٦–ذم الكلام للهروي (٥/٦٦).

قال الحميدي: وكان كلامه وقع في قلبي فجالسته، وغلبتهم عليه، صار هو أقرب للشافعي، فلم نزل نقدم مجلس الشافعي حتى كان بقرب مجلس سفيان[٤٧].

وانصرف أبو عبيد يومًا من الصلاة، فمر بدار إسحاق الموصلي، فقالوا له: يا أبا عبيد صاحب هذه الدار يقول: إنَّ في كتابك غريب المصنف ألف حرف خطأ!!

فقال أبو عبيد: «كتاب فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير»[٤٨].

وقال السخاوي رحمه الله في كتابه «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر»: «وأما بره بشيوخه، فوراء العقل، حتى إنه همَّ بتتبع شيخه الحافظ نور الدين أبي الحسن الهيثمي في كتابه "مجمع الزوائد"، فبلغه أنَّ الشَّيخ تأثَّر مِنْ ذلك، فرجع مراعاةً لخاطره.

٤٧- الجرح والتعديل (٧/٢٠٣). ويقول الأستاذ محمد محمد أبو موسى وفقه الله كما في الحصاد القديم (ص٢٥٨): «ويجوز أن يقع أيُّ عالم في أخطاء؛ لأن العلم لا يَعصم من الخطأ، وهناك نظام وقانون يحاسب المخطئ، وليس هناك قانون يمحو علمَ العالم بسبب خطئه مهما كان حجم هذا الخطأ، ولكن يبدو: أنَّ ما اتفق عليه البشر؛ من أن الحسنات يُذهبن السيئات= قد انعكس عندنا؛ وصارت السيئات -ولو كانت ملفَّقة- تُذهب الحسنات، ولو كانت ساطعة كالشمس».

٤٨ - تاريخ بغداد (١٢/٣٩٢).

وكـذا بـرُّه لأبنـاء شـيوخه وذوي البيـوت، بـل طلبـة العلـم، فغـير مُنكَـرٍ، حتى ولو كان ابنُ الشَّيخ يُؤذيه....!!»[٤٩].

معنى الكـلام: أراد ابـن حجـر أن يتتبـع أوهـام الهيثمـي، فلمَّـا علـم بعـدم رضا شيخه لذلك توقف عن عمله.

وهـذا مـن سـلامة قلـب الحـافظ ابـن حجـر، ولـو كـان مـن المتعـالمين لطـار فرحًـا بتتبعـه أوهـام شـيخه، وهـذا الـذي فعلـه ابـن حجـر يكفـي المتبصـر عن قراءة مقالات في الأدب مع الشيوخ!

فالحـذر الحـذر يا طالـب العلـم مـن تصـيد الأخطـاء، وتتبـع العثـرات، ثم تقولبهـا بقالـب النصـيحة، فهـذه سمـة المنـافق الـذي ينصـح ويفضـح، أمـا المؤمن فينصح ويستر.

وقـال الضـياء المقدسـي واصـفًا ابـن قدامـة: «ومـا علمـت أنَّـه أوجـعَ قلـب طالب»[٥٠].

وينبغـــي عليـــه أنْ ينظـــر في الخــــلاف المعتـــبر وغـــير المعتـــبر، وينظـــر في أسبابه، فضلاً عن نتائجه وعواقبه[٥١].

٤٩- (الباب السابع: فصول، ومنها: أدب ابن حجر مع شيوخه) (٣/١٠١٥).

٥٠- سير أعلام النبلاء (٢٢/١٧٠).

٥١- انظـر: الموافقـات (٤/٤٣٤)، و«مجمـوع الفتـاوى» (١٣/٣٣٣)، و«الصـواعق المرسـلة» لابـن القـيم (٢/٦٥٥)، و«شـرح الطحاويـة» لابـن أبي العـز (٢/٧٧٨)، وغيرهم.

الحقُّ أحق أن يتبع

وهـذا باب لا يُسلِّم لـه إلا مـن سلَّم الله قلبـه، ومـرَّن نفسـه بالمجاهـدة، فـبعض النـاس يمتنـع أحيـانًا عـن الرجـوع إلى الحـق بسـبب المعانـدة والمكـابرة، أو الخـوف علـى الجـاه، أو الحـرص علـى الصـيت وبقـاء الـذكر ولو على حساب الآخرة.

وقـد صَّـور العلامـة الشـوكاني ذلـك بقولـه: «ومـن الآفـات المانعـة عـن الرجـوع إلى الحـق أن يكـون المـتكلم بالحـق حـدث السـن بالنسـبة إلى مـن ينـاظره أو قليـل العلـم أو الشـهرة في النَّـاس والآخـر بعكـس ذلـك؛ فإنَّـه قـد تحملـه حميـة الجاهليـة والعصـبية الشـيطانية علـى التمسـك بالباطـل أنفـة مـن الرجـوع **إلى قـول مـن هـو أصـغر منـه سـنًا أو أقـل منه علمـاً أو أخفـى شـهرة** ظنـاً منـه أنَّ في ذلـك عليـه مـا يحـط منـه، ويـنقص مـا هو فيه

وهـذا الظـنّ فاسـد، فـإنَّ الحـط والـنقص إنَّمـا هـو في التصـميم علـى الباطـلِ، والعلـوِ والشـرف في الرجـوع إلى الحـق بيـد مـن كـان، وعلـى أي وجهٍ حصل»[٥٢].

---

٥٢ –أدب الطلب ومنتهى الأدب (ص٩٠) ط: دار ابن حزم.

وكم هذا واقع في زماننا، وقد رأيت شاباً يرد على رجل في قومه متصدر ويفري بعرض أهل العلم فرد الشاب على ذلك المتمشيخ العياب.

فما كان -من المتمشيخِ- إلا أنْ عيَّره بإنَّه يوم كان في سن طلب العلم كان هذا الشاب غير مولود ولا موجود!

فردَّ ذلك الشاب عليه، وقال له: «هذا الذي قلته فيَّ قدر الله عليَّ» يعني صغر سنه [٥٣].

فجال ببالي قصة البخاري وهو ابن عشر سنين، حينما رد على الداخلي[٥٤]، ومثلها: رد يحيى بن معين على نعيم بن حماد.

---

٥٣ -روى وكيع في «الزهد» (ص٢٢١) كتب عمر إلى أبي موسى: «إنَّ الفقه ليس عن كبر السن، ولكنه عطاء الله ورزقه»، وانظر: تحرير هذا المقام في كتابي (مواقف وكلمات صنعت علماء).

٥٤ -روى الحافظ ابن عساكر الدمشقي في «تاريخ دمشق» (٥٢/٥٧) بإسناده عن جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي، قال: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري كيف كان بدو أمرك في طلب الحديث؟
قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في كالكتَّاب، قال: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، وقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم! فقلت له: يا أبا فلان، إنَّ أبا الزبير لم يروِ عن إبراهيم! فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كانت عندك، فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم. فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، فقال:

قال ابن معين: حضرنا نعيم بن حماد بمصر، فجعل يقرأ كتاباً من تصنيفه، فقرأ ساعة، ثمَّ قال: حدثنا ابن المبارك، عن ابن عون بأحاديث.

فقلت: ليس ذا عن ابن المبارك.

فغضب، وقال: ترد علي؟!

قلت: إي والله، أرد عليك، أريد زينك.

فأبى أن يرجع، فقلت: لا والله ما سمعت أنت هذا من ابن المبارك قط، ولا هو من ابن عون.

فغضب، وغضب من كان عنده من أصحاب الحديث، وقام، فأخرج صحائف، فجعل يقول: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس أمير المؤمنين في الحديث؟ نعم يا أبا زكريا غلطت، وكانت صحائف، فغلطت، فجعلت أكتب من حديث ابن المبارك، عن ابن عون، وإنما رواها عن ابن عون غير ابن المبارك.

صدقت. فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة.

قال الذهبي: هذه الحكاية أوردها شيخنا أبو الحجاج منقطعة، فقال: «روى الحافظ أبو نصر اليوناري بإسناده عن عباس..»[٥٥].

ومثلها: ما قاله الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «ومن هذا الحكاية المشهورة أنَّ بعض أهل العلم سُئِل عن مسالة، فقال: لا أعلمها!

فقال أحد تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة.

فغضب الأستاذ وهمَّ به!

فقال له أيها الأستاذ: لست أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ فلم يعتب عليه ولم يعنفه»[٥٦].

---

٥٥ –سير أعلام النبلاء (١٠/٥٩٨)، و «تهذيب الكمال» للحافظ أبي الحجاج المزي (٢٩/٤٧١).

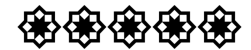
والباب نحو ذلك، كما في «التاريخ الكبير» للإمام البخاري (٣/٣٨٧)، عن محمد بن عبد الرحمن القرشي: كان علي بن حسين يجلس إلى زيد بن أسلم، ويتخطى مجالس قومه، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: تخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟ فقال: «إنمَّا يجلسُ الرجل إلى من ينفعه في دينه».

وقال سفيان بن عيينة: «الغلام أستاذ إن كان ثقة».

وقال علي بن المديني: «ليس العلم بالسن» كما في «الآداب الشرعية» (٢/١١٠).

٥٦ – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/٤٩٥).

وقال ابن أبي العز الحنفي: «فكم من تلميذ أعلم من شيخه وأفضل منه»[٥٧]. فينبغي أن يتفطن أنَّ هذا من أسباب عدم الإنصاف في بعض الأحيان، والله المستعان.



٥٧ – الاتباع (ص٣١-٣٢)، ط: المكتبة السلفية-لاهور. كان الأولى بالمعلم أن يعلم الطالب أدب العلم، وعلى الطالب أن يتعلم آداب حضور مجالس أهل العلم، وطرق الحديث معهم، وأدب سؤالهم، والعلم هو الأدب.

ألا ينسب الخير لنفسه وينفيه عن غيره

وانظر إلى أسلوب القرآن في تصوير مثل هذا المشهد، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٣١].

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: «هذا على وجه الإنصاف في الحجة كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنَّه صادق وأنَّ صاحبه كاذب، والمعنى: ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل على أمرين متضادين»[٥٨].

وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

---

٥٨ – تفسير القرطبي (٢٩٨/٤).

روى الخطيب بإسناده عن خالد بن خداش، قال: قال: سمعت حماد بن زيد، يقول: «التدليس كذب» ثمَّ ذكر حديث النبي ﷺ «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

قال حمَّاد: «ولا أعلم المدلس إلا متشبعاً بما لم يعط»[٥٩].

ومن صوّر نفسه بمثل الذي حذرنا فقد زكاها، والله يزكي من يشاء، ولا ينبغي لعبد أن يزكي نفسه ولا يمدحها على وجه التعالي والتكبر؛ بل يهضمها ويخمل ذكرها، فذلك أنفع وأسلم، كما قال الجنيد بن محمد: سمعت سَريًا السَّقَطِيَّ يقول: «اجتهد في الخمول فإنَّ أحوالك تشهرُك بين أوليائه إذا صحَّ مقامُك فيها»[٦٠].



٥٩ –الكفاية في علم الرواية (١٤٢/٢)، ط: دار ابن الجوزي. والحديث في صحيح البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٢٩)، و(٢١٣٠)، وهو عند أحمد (٢٥٣٤٠).

٦٠ –الزهد الكبير للبيهقي (ص٩٩).

الاختلاف في الفهوم ليس مدعاة للخصوم

فكل له فهم قد حباه الله، ولو شاء الله لجعل الناس في ذالك سواسية، ولكن كل شيء بقدر. **واختلاف الفهوم فيه فوائد كاستخراج لمكنون العلوم، وإظهار لكثير من الفنون.**

وقد حكَم داود وسليمان عليهما السلام في مسألة فهمها أحدهم ولم يعب على الآخر فيها، بل أثنى الله على كل واحد منهما بأنَّه آتاه حكماً وعلماً قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

قال ابن كثير: «فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثمَّ قال -يعني الحسن-: إنَّ الله اتخذ على الحكماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلًا ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحدًا»(٦١).

ونصَّ الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله على هذا الأصل في «جامع بيان العلم»، فقال: «من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم»(٦٢).

٦١- مجموع الفتاوى (١٧٣/٢٠).

٦٢-جامع بيان العلم (٨٦٢) (٥٣٠/١).

ومن المعلوم أنَّ المخالف قد يكون جاهلاً فينبغي أن يعذر ويؤتى إليه ويبين له. فقد كان ذلك حال السلف مع بعضهم البعض، فإذا كان هذا في حال العصاة والمخالفين فكيف إن كان من أهل الفضل والدين وجهل أمرًا أفلا يحتاج إلى زيارة أو تواصل وتذكير ونصح في الله، وأمَّا تبيين ما عليه المخالف؛ فأدواته البصيرة والحكمة.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذلك مع ما جرى بين أبي يوسف الحنفي قاضي القضاة في زمانه ومالك إمام دار الهجرة في مسألة الصاع والمد، والزكاة عن الخضروات، وكذلك الأحباس، وفيه تظهر حكمة مالك وبصيرته في إقناع أبي يوسف، حتى رجع وقال: **«لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت»**[٦٣].

أخا اللبّ لا تعجل بعيب مصنّف ... ولم تتيقن زلة منه تعرف

فكم أفسد الراوي حديثًا بنقله ... وكم حرّف المنقول قوم وصحّفوا

وكم ناسخ أضحى لمعنى مغيّرا ... وجاء بشيء لم يرده المنصف[٦٤].

قال المعلمي اليماني رحمه الله «واعلم أنَّ الأفهام تختلف وتأثير الأدلة والشبهات في النفوس يختلف باختلاف العقول والأهواء وغير ذلك، فكم من معنى هو عند بعض الأئمة حجة قوية، وعند بعضهم شبهة ضعيفة، وحسبك بأن الصحابة وأئمة التابعين اختلفوا في مسائل كثيرة وربما لم يقدر أحدهم على إقناع الآخر، مع أنَّهم كانوا أبعد النَّاس عن الهوى إذا تبين»، كما في «آثار المعلمي اليماني» (٨٨٥/٣).

٦٣- مجموع الفتاوى (٤٧/٤).

٦٤-مجمع الآداب في معجم الألقاب لابن الفوطي (٢٤٥/١).

وفي اللقيا والسماع من القائل فوائد جمة: أهمها سلامة القلب، قال ابن حزم: «واللقاء يذهب بالسخائم، فكأنَّ نظر العين إلى العين يصلح القلوب»[٦٥].

وروى أبو نعيم في «حلية الأولياء» بإسناده قال: اجتمع وهب بن منبه وعطاء الخراساني، فقال له عطاء: يا أبا عبد الله، ما هذا الكلام الذي بلغني أنَّه قد فشا عنك في القدر؟ فقال وهب بن منبه: «ما تكلمت في القدر بشيء، ولا أعرف هذا!!»[٦٦].

وقال ابن العز الحنفي: «كم قد خالف أبا حنيفة أبو يوسف ومحمد وزفر وغيرهم من أصحابه في مسائل لا تكاد تحصى، وكم قد رجعوا عن مسألة لما ظهر لهم فيها الدليل على خلاف ما كانوا وافقوه فيه.

وقد قال أبو يوسف لما رجع عن قوله في مقدار الصاع وعن صدقة الخضروات وغيرها: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّه يعلم من أبي حنيفة رحمه الله أنَّه إذا ظهر له الدليل رجع إليه»[٦٧].

٦٥-رسالة في مداواة النفوس (٢٠٦)، من مجموعة الرسائل (١/٤٠٣).

٦٦-حلية الأولياء (٤/٢٤).

٦٧-الاتباع (ص٤٠)، ط: المكتبة السلفية.

وترجم السبكي (علي بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب الشيخ الإمام علاء الدين الباجي)، وقال: أعلم أهل الأرض بمذهب الأشعري في علم الكلام.

وقال: كان إليه مرجع المشكلات ومجالس المناظرات، ولما رآه ابن تيمية عظَّمه ولم يجر بين يديه بلفظة فأخذ الشيخ علاء الدين يقول: تكلم نبحث معك وابن تيمية، يقول: مثلي ليس يتكلم بين يديك، أنا وظيفتي الاستفادة منك[٦٨].

وقال ابن تيمية: «وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف؛ كأبي الحسين البصري ونحوه من المعتزلة، وكابن الهيصم من الكرامية، وكأبي الحسن نفسه، والقاضي أبي بكر، وأبي المعالي الجويني، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي بكر ابن فورك، وأبي القاسم القشيري، وأبي الحسن التميمي، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وابن الزاغوني غفر الله لهم ورحمهم أجمعين»[٦٩].

وقال الذهبي بعد نقله لكلام ابن الصلاح الذي انتقد فيه تفسير الماوردي، ورميه بالاعتزال: «وبكل حال هو مع بدعة فيه من كبار العلماء. فلو أننا أهدرنا كل عالم زل لما سلم معنا إلا القليل، فلا تحط

٦٨-طبقات الشافعية الكبرى (١٠/٣٣٩-٣٤٢).

٦٩-النبوات (٢/٦٣٠-٦٣١).

يا أخـي علـى العلمـاء مطلقـا، ولا تبـالغ في تقـريظهم مطلقـا وأسـأل الله أن يتوفاك على التوحيد»[٧٠].



٧٠-تاريخ الإسلام (٩/٧٥١).

رفض المخالف لا يعني التشنيع عليه إن كان عامياً فضلًا عن كونه منسوبًا لأهل العلم والفضل

وهـذا ديـن وحـق، فالمخالفـة تقتضـي الـرد وتحتـاج إلى التأصـيل والبيـان بالحجـة الدامغـة والكـلام السـديد السـليم، الـذي يبـين المعايـب بأقـلِّ التكـاليف، ففـي «طبقـات الحنابلـة»، قـال يحـيى: أخطـأ عفـان في نيـف وعشـرين حـديثاً مـا أعلمـت بهـا أحـداً وأعلمتـه فيمـا بيـني وبينـه ولقـد طلب إلي خلف بن سالم فقال: قل لي أي شيء هي؟

فمـا قلـت: لـه ومـا رأيـت علـى رجـل قـط خطـأ إلا سـترته، وأحببـت أن أزيـن أمـره ومـا اسـتقبلت رجـلاً في وجهـه بأمـر يكرهـه ولكـن أبـين لـه خطأه فيما بيني وبينه[٧١].

وذلك لاعتبارات أهمها:

[١]–ألا يعامل أقل من معاملة المذنب.

ومـن حـق المـذنب علـى المحتسـب أن يبـين لـه، وأن يـذكِّره، ثم يلجـأ إلى مـا هـو فـوق ذلـك وهـو علـى درجـات، ويختلـف بحسـب الأحـوال والأوقات.

٧١-(١/٤٠٥) ط: دار المعرفة.

قال أمير المؤمنين -في الحديث- سفيان الثوري رحمه الله: «لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهى عنه، عدلٌ فيما يأمر به عدلٌ فيما ينهى عنه، عالمٌ بما يأمر به عالم بما ينهى عنه»(٧٢).

وقال الماوردي رحمه الله في «الأحكام السلطانية»، في ذكره (للتعزير والفرق بينه وبين الحد): «**أحدها**: إنَّ تأديب ذي الهيبة من أهل الصيانة أخف من تأديب أهل البذاءة والسفاهة؛ لقول النبي ﷺ: (أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم).

ثمَّ قال: فتدرج في الناس على منازلهم: فإن تساووا في الحدود المقدَّرة فيكون تعزير من جلَّ قدره بالإعراض عنه، وتعزير من دونه بالتعنيف له، وتعزير من دونه بزواجر الكلام وغاية الاستخفاف الذي لا قذف فيه ولا سب»(٧٣).

وقال النجم ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين: «واعلم أنَّ الحسبة لها خمس مراتب:

الأولى: التعريف.

٧٢-الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال (ص٥٠).

٧٣- (ص١٠٤).

الثانية: الوعظ بالكلام اللطيف»[٧٤].

فإن قلت ذلك عامي وهذا عالم؟! قلت: تعظيمًا للعلم ومعرفة بحرمة أهله فإنَّه يعامله باحترام وإنصاف، وهذا من باب (إنزال النّاس منازلهم)؛ وهو حق لازم، فكيف إذا اجتمعت فيه شيبة المسلم، وكان ناصراً للدين، مدافعًا عن بيضته، ثمَّ وقعت منه هفوة أو كبوة!!

فيا قوم...لِمَ التجريح على الملأ؟ ولماذا التدليس في النصح؟ وآسف لمن يطعن بإخوانه من أهل الفضل والعلم بطريقة منفرة أمام العامة، وليعلم أنَّه لن ينجو منها في الدنيا قبل الاخرة، وأول من يسنها فيها أعوانه وأنصاره والله شاهد إن شاء الله، كما قال ابن الجوزي رحمه الله: «وممَّا ينبغي للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء، فإن ابن سيرين قال: عيرت رجلًا فقلت: يا مفلس! فأفلست بعد أربعين سنةً.

وقال ابن الجلاء: رآني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمرد!

فقال: «ما هذا؟! لتجدنَّ غبها، فَنُسِّيتُ القرآن بعد أربعين سنة»[٧٥].

٧٤- ص (١١٨)، ثم ذكر بقية الكلام، فليرجع له.

٧٥-صيد الخاطر (٣٩) ط: دار القلم

ويُروى من حديث ابن مسعود بإسناد فيه ضعف: «البلاء موكل بالمنطق، فلو أن رجلاً عيَّر رجلاً برضاع كلبة لرضعها»[٧٦].

وروى ابن أبي الدنيا في «ذم البغي»، عن شرقي بن القطامي، قال: قال صيفي بن رباح التميمي لبنيه: «يا بني اعلموا إنَّ أسرع الجرم عقوبة البغي، وشر النصرة التعدي، وألأم الأخلاق الضيق، وأسوأ الأدب كثرة العتاب»[٧٧].

[٢]- ألا يسعه ما وسع من زلت قدمه في معصية ثمَّ تاب منها وندم عليها، عملاً بدفع الحدود بالشبهات، كما هو مبوبٌ في كتب كثير من المحدثين كـ: ابن أبي شيبة، والترمذي، وابن ماجة، والبيهقي، والهيثمي، وغيرهم. مع أنَّ العمل بالحد فيه ردع وزجر، وهي «زواجر وموانع» كما قيل.

وفي «سنن الدارقطني»، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه، أنَّ عبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل

---

٧٦ –الفرق بين النصيحة والتعيير لابن رجب (ص٢١)، وبوّب وكيع في كتابه «الزهد» (ص٥٨٥ وما بعد)، فقال: «باب من قال: البلاء موكل بالقول» وذكره بنحوه.

٧٧ –ذم البغي (٢٥) (ص٧٣) ط: دار الراية.

وعقبة بن عامر الجهني رضي الله عنهم قالوا: «إذا اشتبه عليك الحد فادرأه ما استطعت»[٧٨].

وفي الحديث: «إقامةُ حدٍّ يعمل بأرض خيرٌ لأهلها من مطر أربعين ليلة»[٧٩]. ولكن كأنَّ هذه النصوص قد غابت عن هؤلاء!!

من الذي ما ساء قط .... وَمنْ له الحسنى فقط.

ولله در القائل:

آخِ الْكِرَامَ الْمُنْصِفِينَ وَصِلْهُمْ ... وَاقْطَعْ مَوَدَّةَ كُلِّ مَنْ لَا يُنْصِفُ[٨٠].



٧٨ سنن الدارقطني (٣/٣٩) ط: دار الحديث.

٧٩ روي مرفوعًا وموقوفًا على أبي هريرة رضي الله عنه كما في «سنن النسائي» (٧٣٩٢)، ورواه ابن ماجة في «سننه» (٢٥٣٨) (٢٥٣٩)، والأول من روية ابن عمر وسنده ضعيف جدًا، والثانية من رواية أبي هريرة، وإسناده ضعيف.
وانظر: «الضعيفة» (١٥٩٥)، و«التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان» (٤٣٨١).

٨٠ الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/١٠٧).

إنصاف الأقران لازم وكلامهم يطوى ولا يروى

ولعل كلامَ بعض أهل زماننا اليوم من هذا القبيل، سيَّما ما قام منه على الهوى وحب التصدر، فإن لم يكن كذلك فقد ذكرنا شيئًا منه في ((القاعدة السادسة)).

وهذا أمر مهم ينبغي النظر له بعين البصر والبصيرة، وهذا شأن السلف وتراجمهم كثيرة، ومن وقعت منه مخالفة فهو معذور؛ لإنَّه تأول أو علم ما لم يعلمه غيره، ومع هذا فإنهم تكلموا بكلّ إنصاف[٨١].

وقد ذكر الذهبي، عن أبي العباس السفاح، أنَّه: «كان إذا علم بين اثنين تعادياً لم يقبل شهادة ذا على ذا، ويقول **العداوة تزيل العدالة**»[٨٢].

وروى ابن عبد البر في «جامعه» بأسانيده عن ابن عباس، ومالك بن دينار، وأبي حازم ﷺ، قوله: «خذوا العلم حيث وجدتم، ولا تقبلوا

---

٨١ – قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوى» (٢٨٨/٣): «فالمتأول والجاهل المعذور؛ ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكلِّ شيءٍ قدرًا».

٨٢ – السير (٧٩/٦).

قول الفقهاء بعضهم على بعض، فإنَّهم يتغايرون تغاير التيوس في الزريبة»[٨٣].

وذكر الإمام الذهبي قواعد ذهبيّة وهو يترجم للرجال بكلِّ إنصاف، وفيما قال: «ولو سمعنا كلام الأقران بعضهم في بعض لاتسع الخرق»[٨٤]. قلت: وإن اتسع الخرق زاد في الأمة الضعف والتفرق!

وردَّ العراقي ما وقع بين النسائي وأحمد بن صالح المصري في "ألفيته المباركة"، فقال:

وَرُبَّمَا رُدَّ كَلَامُ الْجَارِحِ ... كَالنَّسَائِي فِي أَحْمَدَ بْنِ صَالِحِ[٨٥]

قال عبد الكريم بن أحمد بن شعيب النسائي عن أبيه: أبو جعفر أحمد بن صالح، مصري ليس بثقة ولا مأمون، تركه محمد بن يحيى، ورماه يحيى بن معين بالكذب[٨٦].

فردَّه الإمام ابن عدي الجُرجاني بقوله: «وكلام بن معين فيه تحامل، وأمَّا سوء رأي النسائي فسمعت محمد بن هارون بن حسان البرقي يقول: هذا الخراساني -يعني النسائي- يتكلم في أحمد بن صالح، وحضرت مجلس أحمد بن صالح، وطرده من مجلسه، فحمله ذلك

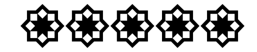
٨٣- (٢١٢٥) (١٠٩١/٢).

٨٤- تاريخ الإسلام (٧٥٥/٨).

٨٥ -ألفية العراقي (٩٨٣).

٨٦-تهذيب الكمال (٣٤٦/١).

على أن تكلم فيه وهذا أحمد بن حنبل قد أثنى عليه؛ فالقول فيه ما قاله أحمد، لا ما قاله غيره فيه»[٨٧].



٨٧–الكامل في ضعفاء الرجال (١/١٨٣).

ترك الإنصاف سبب في ترأس الجهال وتصدر أهل التعالم

وقد قيل: «العلم نقطة كثَّرها الجاهلون».

بدأت هذه النقطة عندما توسعت دائرة الخلاف القائم على الهوى والذي تسبب بعدم الإنصاف؛ وكأنَّ لسان حال أهله ما قيل: (خالف تعرف)، ورحم الله مَنْ قال:

إذا نُهي السفيه جَرَى إليه ..... وخالف والسفيه إلى خلاف[٨٨]

بحث هؤلاء وأذنابهم عن شيءٍ يظهروا فيه للعامة ويتكسبوا عليه ليكونوا بعداد الخاصة فراحوا يفُرُّون وينعقون بلا خشيةٍ من الله أو حياءٍ من النَّاس، فأهل التعالم همُهم أن يتصدروا ولو على أعراض العلماء وأهل الفضل، وإنما أهلك النَّاس الدرهمُ والدينار، والعاقل يعلم ذلك.

وقد أنكر ابن العربي المالكي حال هؤلاء حينما شرع بشرح الترمذي كما حكاه في مقدمة «عارضة الأحوذي»، ونصه: «وفي عِلم علَّام الغيوب إني أحرص النَّاس على أن تكون أوقاتي مستغرقةً في باب

---

٨٨ –الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري (١/١٤٠).

العلـم، إلاَّ أني مُنيـت بحسـدةٍ لا يُفتنـون، ومبتدعـة لا يفهمـون، قـد قعدوا مني مَزجرَ الكلب يُصبصون»(٨٩).

وقد عانى أعلام الرجال وشيوخ الدنيا من صغار الناس وهم لا على وجه التخصيص: النووي، والشاطبي، وابن تيمية، وقبلهم الطبري، والحسن البصري(٩٠).

وآخر العهد وليس ذلك بإغلاق للباب، فليته أغلق وارتاح المسلمون من تلك المقالات إذ صرنا نشاهد الفتنة -إسقاط المخالف والطعن به- تقع على المسمَّى دون المضمون، عليها يعادون وبها يوالون، ومثله كثير وعليه قايس، أمثال هذه المحن والإحن، والله المستعان.

قال الخطيب رحمه الله: «فقد شاهدنا ما كنا قبل نسمعه، ووصلنا إلى الزمان الذي كنا نحذره ونتوقعه، وحل بنا ما لم نزل نهابه ونفزعه، من استعلاء الجاهلين، وظهور الخاملين، وخوضهم بجهلهم في الدين، وقذفهم بوصفهم الذي ما زالوا به معروفين السادة من العلماء والأئمة المنزهين، وبسطهم ألسنتهم بالوقيعة في الصالحين، وإن الذنب بهم

---

٨٩ -تصنيف الناس بين الظنِّ واليقين (ص٣٧) ط: دار العاصمة.

٩٠- في «حلية الأولياء» (٦/٣٠٥)، عن الربيع بن صبيح، يقول: قلت للحسن: إن ههنا قوما يتبعون السقط من كلامك ليجدوا إلى الوقيعة فيك سبيلًا فقال: «لا يكبر ذلك عليك فلقد أطمعت نفسي في خلود الجنان فطمعت وأطمعتها في مجاورة الرحمن فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلًا؛ لأنيِّ رأيت النَّاس لا يرضون عن خالقهم فعلمتُ أنهَّم لا يرضون عن مخلوق مثلهم».

ألحق، والذم إليهم أسبق، والقبيح بهم ألصق، والعيب بهم أليق، وما سبيلهم فيما قصدوه من الطريق الذي سلكوه، وظنهم الكاذب الذي يوهموه، وقولهم الباطل إذ أذاعوه، إلا ما أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق البزاز قال: أنشدنا أحمد بن كامل قال: أنشدنا أبو يزيد أحمد بن روح البزاز قال: أنشدنا عبيد بن محمد العبسي في ابنه :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه.... فالناس أضداد له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها .... حسداً وبغياً إنه لذميم

وترى اللبيب محسداً لم يجترم .... شتم الرجال وعرضه مشتوم

وقال: أخبرنا ابن رزق، قال: أنشدنا أحمد بن كامل، قال: أنشدنا الحارث بن محمد بن أبي أسامة قال: أنشدنا علي بن محمد المدايني:

إنَّ الغرانيق نلقاها محسدة .... ولا نرى للئامِ النَّاس حساداً»[٩١].

وقال سفيان بن وكيع: سمعتُ أبي يقول: دخلتُ على أبي حنيفة، فرأيته مُطرِقًا مفكرًا، فقال لي: مَنْ أين أقبلت. من عند شريك؟ ورفع رأسه، وأنشأ يقول:

إنْ يحسُدُوني فإنَّي غيرُ لائِمهم .... قبلي مِنْ النَّاسِ أهلُ الفضلِ قَدْ حُسِدُوا

فدامَ لي ولهم ما بي وما بهمُ .... وماتَ أكثرُنا غيظًا بما يَجِدُ[٩٢].

٩١- (الاحتجاج بالشافعي) ص (٣٦٨).

٩٢- تاريخ بغداد (١٥/٥٠٢).

ولما ألف الحريريُّ (المقاماتِ) حسدُوه وقالوا للسلطان: هذا سرقها!!
فاحضرَهَ وقال له: هذه خمسون مقامةٍ، فإن كانت من إنشائك فزدها
واحدةً، وإلا عاقبتُك. وحبَسَه ومنعَ كلَّ أحدٍ من الدُّخول إليه فزادها
واحدةً في ليلةٍ.

ولما ألَّف التاجُ السبكي (جمع الجوامع) وكان بالشَّام، حسدوه ووشى
به أهلُ مصر ورموهُ عند السلطان بعدِّة كبائر، حتى أحضره على
البريد بالقيد والزندِ. فبَرَّأهُ الله ممَّا قالوا، وأطلقه وألبسه خِلعة.

ولما ألَّف الحافظ مُغلطاي حسدوه وقالوا للسلطان: هذا كلُّه خطأٌ
فنادى في سُوقِ الكتبيين: إنَّ من اشترى هذا الكتاب أو باعه شُنِق.

ولما ألَّف الرازي (التفسير) قال حاسدوه: فيه كلُّ شيءٍ إلا التفسير.

ولما ألَّف البقاعي (المناسبات) [٩٣]، ثاروا عليه ورموه بالكفر، وقالوا:
هو ينقل من التوراة والإنجيل، وذلك لا يجوز. وأفتى جماعةٌ بوجوب
إعدامه، وأمر السلطانُ بإحراقه وضرب مؤلفِه ونفيه. فكتب جدُّنا
شيخ الاسلام قاضي القضاة شرف الدين يحيي المناوي عليه بحسن
صنيعه، وبالغ في تعظيمه، فكفوا عنه[٩٤].

❁❁❁❁❁

٩٣- وهو كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) مطبوع.

٩٤- من كتاب الفيوض الإلهية بشرح الألفية الوردية في علم التعبير وهو شرح ألفية ابن الوردي المعري، شرح المناوي (ت ١٠٣١هـ)، (ص٤٦-٤٧).

قول الحق وإنصاف الرجال سمة للرجال

وقد قيل الإنصاف عزيز! وليس لهذه اللفظة -الرجال- في الغالب في القرآن إلا لذوي الشأن، فلينتبه.

وقلّ الرجال في ثباتهم في مثل هذا المحن، وقولهم الحق دون مهادنة أو تردد، وقد كانت هذه الصفة منقبة في سابق الأزمان، وطفحت بها الكتب في سير الأئمة والأعلام، وأمّا في زماننا ففي الغالب تودع منها، وقل: على الأمة السلام.

و رضي الله عنه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ قال: «لا يعجبنكم طنطة الرجل، ولكن من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل»(٩٥).

ومن دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «اللهم ثبتنا على كلمة العدل والهدى والصواب»(٩٦).

وقال أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله: «ما أحسن الإنصاف في كلِّ شيء»(٩٧).

٩٥- الزهد لابن المبارك (٦٩٥).

٩٦- ذم الكلام للهروي (١٤٩٧) (٥/١٩٩-٢٠٠).

٩٧-تاريخ بغداد (٧/١٩٦)، و«ميزان الاعتدال» (١/١٤٧).

وقال ابن عبد الهادي الحنبلي: «وما تحلى طالب العلم بشيء أحسن من الإنصاف وترك التعصب»[٩٨].

وقد بلغ السلف في ذلك مبلغاً عظيماً، فانظر في شأن وكيع ومحنته وإنصاف ابن عيينة له رحمهم الله، ومثله كلام ابن أبي ذئب عندما أخبر بعدم عمل مالك في حديث (البيعان بالخيار)، وإنصاف الإمام أحمد رحمه الله له، مع النظر في ثبوت صحة القصة.

ومثله عدم حمل مالك النَّاس فيما عرضه الخليفة المنصور في إلزام الناس بموطأه ورفض مالك لئلا يحصر الحق في كتابه، فهذا موقف منصف ولا يقوم به إلا صنديد من الرجال.

ومثله سفيان بن حسين بن حسن الواسطي. وقول ابن حبان منصفًا له: «الإنصاف في أمره تنكب ما روى عن الزهري، والاحتجاج بما روى عن غيره»[٩٩].

وكذا دفاعه عن عفان بن مسلم الصفار الحافظ الثبت الذي يقول فيه يحيي القطان –وما أدراك ما يحيي القطان–: «إذا وافقني عفان لا أبالي من خالفني»، فآذى ابن عدي نفسه بذكره له في كامله، وأجاد ابن الجوزي في حذفه.

ومثله دفاع ابن حجر العسقلاني رحمه الله عن ابن خلدون.

٩٨–انظر: نصب الراية (٣٥٥/١).

٩٩–تاريخ الإسلام (٦٣/٤).

ودفاع الذهبي رحمه الله عن القيرواني وما نسب إليه، وقوله: «هذا كلام بهوى».

فأين هؤلاء فيمن يطعن في العلماء فيسكّتونه ويقولون له: هذا الذي تقوله هو اتباعًا للهوى ولحظوط الدنيا، فالزم تقوى الله ومراقبته والإنابة إليه، واستغفاره، واحذر صنعة المفاليس. ومثل هذه الحكايات كثيرة مذكورة في مواضعها.

والحمد لله رب العالمين.

اللهم سلم لنا ديننا، وأحسن ختامنا، وتول أمرنا، وقِنا شرور أنفسنا ومن كادنا، احفظنا من الفتن، وأعتق رقابنا ووالدينا وأهل الفضل علينا والمسلمين أجمع من النار، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه:

أبو إسحاق

محمود بن أحمد الزويد الجزري

عفا الله عنه ووالديه وأهله والمسلمين.



الفهرس

مذكرة الفوائد